جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

جماليات التصوير بالكلمة في البيان النبوي

(دراسة تحليلية)

للأستاذ الدكتور

محمد السيد البدوي المرسي خليل

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي

كلية الآداب ـ قسم اللغة العربية- جامعة الملك فيصل

العدد الثالث والعشرون

للعام ١٤٤١هـ / ٢٠١٩م

الجزء التاسع

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٩م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث باللغة العربية

جماليات التصوير بالكلمة في البيان النبوي (دراسة تحليلية)

البيان النبوي الشريف جاء متوافقًا مع حاجات النفس البشريَّة، مطابقًا لأحوالها، ومتلائما مع مقاماتها، يرغِّبها تارة وتارة يرهبها، يهدهدها حيناً، وحينًا آخر يعنفها، يعرف مفاتيح القلوب فيدخلها طوعًا، يكتشف فيها مجاهل الظلام فيتكفَّل بإضاءتها، لا تلمس فيه اضطرابًا، ولا يعرف القصور إلى رحابه بابًا، فمن بيان القرآن ينساب انسيابًا، فلا عجب أن تكون كلماته لآليء مضيئة، ومنارات هادية، تتعاضد فيما بينها لأداء معانيه، في ظل تماسك نصِّي تتحسسه فيه، ومن ثم كانت اختياراته متناسبة من حيث انتقاء الكلمات المعبرة عن مقصود ذلك البيان، موحيةً بمراداته، مصورةً لخيالاته.

يستوي في ذلك ألفاظه وأساليبه وصوره، فقد جاءت كلها ملائمة لمقامات الأحوال، وسياقات الخطاب.

– ويركز هذا البحث على ألفاظه الشريفة؛ فهي اللبنات المكونة لهيكل ذلك البيان، والمؤسِّسة لكيانه، وقد يأتي جمالها من كونها فريدة من الفرائد والدرر، أو من روعة تصويرها، أو من جرس حروفها، أو من كونها موحية برموز ومعانٍ، أو من غرابتها ولفتها للأذهان، أو من حسن تناسقها مع جاراتها، وملاءمتها للسياق الذي وردت فيه.

ومن ثم افتتح البحث بتأصيل هذا المبدأ القرآني والنبوي الذي يحث على انتقاء الكلام وتحسين الألفاظ، من خلال بعض النصوص.

ونخلص إلى أن الكلمة في البيان النبوي الشريف جاءت في أبهى حللها، وأنسب حالاتها، وأدق تعبيراتها، وهذا ما سيكشف عنه البحث –إن شاء الله تعالى–.

الكلمات المفتاحية: جمال الكلمة – البيان النبوي – الكلمة المصورة – الكلمة الموحية – جرس الكلمة – الكلمة والسياق.

الأستاذ الدكتور

محمد السيد البدوي المرسي خليل

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي

كلية الآداب - قسم اللغة العربية- جامعة الملك فيصل

Email: M.elsaed2020@yahoo.com

الترقيم الدولي
ISSN 2356-9050

٨٨٠٦

حولية كلية اللغة العربية بجرجا
مجلة علمية محكمة

Summary of the research in Arabic

Aesthetics of word imaging in the Prophet's Statement (analytical study)

The noble discourse of prophet Mohammad peace on him has come to be harmonious with the needs of the human soul, compatible with its aspects and situations; at times enticing it and intimidating it at others, and threatening or reproaching it at other situations. It is aware of the keys of the hearts so it enters them satisfactorily, discovering the dark spots so as to illuminate them. A discourse which you will find no disorder in it, nor will you find any nuance of weakness. It derives from the discourse of the Quarn so it is no wonder that its words are radiant pearls and guiding minarets collaborating to convey its meanings, in the shadow of textual coherence that can be felt. That is why its choices are harmonic in terms of selecting the appropriate words stating the meanings, connoting the intended meanings, depicting its imaginations. The same applies to its utterances, styles and images which all came compatible to its conditions and discourse contexts.

This research focuses on the noble words of the discourse of prophet Mohammad peace on him, for they are the bricks constituting the structure of that discourse, and the foundation of its entity. The beauty of the words can be attributed to its uniqueness or its magnificent depiction, or the rhythm of its sound qualities or because it connotes certain symbols and meanings or because of its peculiarity that catches minds, or because of its perfect harmony with surrounding words and being just right in the context where it appeared.

Thus, the study started by rooting this Quranic and prophetic principle which motivates us to be selective in using words and to choose the best words in certain texts. We then conclude that the word in the prophetic discourse came in its most beautiful attire, and in its most appropriate contexts, and in its most accurate expressions, and that is what this research is going to uncover- by Allah's will.

Key words: beauty of the word - the prophetic statement - the pictured word - the suggestive word - the bell of the word - the word and the context.

Prof.

Mohammed Al-Sayed Al-Badawi Al-Morsi Khalil

Professor of rhetoric and literary criticism

Faculty of Arts - Department of Arabic Language - King Faisal University.

Email: M.elsaed2020@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

جماليات التصوير بالكلمة في البيان النبوي

مقدمة:

البيان النبوي الكريم بيان متفرد في سماته، لم ينشئه الرسول من باب التسلية، أو التعالي بإظهار مقدرته اللغوية، وبراعته اللفظية، وإنما هو بيان أنشيء من أجل غايات سامية، وأهداف نبيلة، ذلك لأن صاحب هذا البيان تحفُّه من الله عناية، وتحوط كلامه رعاية، وصدق فيه قول الله تعالى: " وما ينطق عن الهوى* إن هو إلا وحي يوحى" (سورة النجم الآيتان ٣-٤)، ومن ثم جاء بيانه متوافقًا مع حاجات النفس البشريَّة، مطابقًا لأحوالها، ومتلائما مع مقاماتها، يرغِّبها تارة وتارة يرهبها، يهدهدها حيناً وحينًا آخر يعنفها، يعرف مفاتيح القلوب فيدخلها طوعًا، يكتشف فيها مجاهل الظلام فيتكفَّل بإضاءتها، لا تلمس فيه اضطرابًا، ولا يعرف القصور إلى رحابه بابًا، فمن بيان القرآن ينساب انسيابًا، فلا عجب أن تكون كلماته لآليء مضيئة، ومنارات هادية، تتعاضد فيما بينها لأداء معانيه، في ظل تماسك نصِّي تتحسسه فيه، ومن ثم كانت اختياراته متناسبة من حيث انتقاء الكلمات المعبرة عن مقصود ذلك البيان، موحيةً بمراداته، مصورةً لخيالاته.

يستوي في ذلك ألفاظه وأساليبه وصوره، فقد جاءت كلها ملائمة لمقامات الأحوال، وسياقات الخطاب.

- وسوف أركز في هذا البحث على ألفاظه الشريفة؛ فهي اللبنات المكونة لهيكل ذلك البيان، والمؤسِّسة لكيانه، وقبل الشروع في تحليل نماذج من بيانه الشريف نطرح أولًا مجموعة من الأسئلة التي تتعلَّق بهذا الشأن، وهي تمثل إشكالية الدراسة.

- هل كان اختيار ألفاظ النبوة متوافقًا مع ما يتطلبه الأسلوب الجيد؟.

– وهل هذه الألفاظ حَسُنَ اختيارها؟ وهل كانت الألفاظ في بيانه الشريف مستقرة في أماكنها، متلائمة مع مقاماتها؟ معبرة عن أحوال المخاطبين؟.

– وهل إذا استبدلناها بغيرها يبقى المعنى قائما؟ أم يختل نظام الكلام، وتخرج المعاني عن مراداتها؟!.

– ثم هل جاءت تلك الألفاظ على وتيرة واحدة من اللين واليسر والسهولة، أم إنها تلين وتغلظ حسب حالات المخاطبين ومقاماتهم؟.

– وهل تداعب هذه الألفاظ أوتارًا معينة في دواخل النفوس البشرية؟ من حيث مراعاة طبائع المدعوين، ومفاتيح قلوبهم لتلمس منهم الوتر الحساس المناسب وحالتهم؟.

ذلك لأن النفوس البشرية تحكمها أهواء ورغبات وعادات، فما يلائم نفسًا قد لا يلائم أخرى، فهناك نفوس طيبة تكفيها الإشارة، ويأسرها القول اللين، والكلمة الطيبة، وهناك نفوس أخرى لا يردعها إلا الزجر، ولا يثنيها إلا الترهيب، إذ لا تؤثر فيها كلمات الحكمة ولا اللين ولا الموادعة، وإنما تحتاج إلى نوع معين من الردع والزجر ليحرّك هذه النفوس ويرهِّبَها، وكما قيل قديمًا:"العبد يُقرع بالعصا، والحر تكفيه الإشارة أو الملامة". والناس كما أخبر الصادق المصدوق معادن، منها النفيس ومنها الخسيس.

وقبل الإجابة عن هذه الأسئلة يحسن بي أن أوصل لهذا المبدأ القرآني والنبوي الذي يحث على انتقاء الكلام وتحسين الألفاظ، من خلال بعض النصوص.

الأمر بتحسين اللفظ وانتقاء الكلام:

إن الأمر بتحسين اللفظ وانتقاء الكلام مبدأ أصيل غرسه الله تعالى شأنه في تعاليمه إلى عباده، وعلى هذا سارت السنة النبوية الشريفة، يقول الله تعالى "وقولوا للناس حسنا" سورة البقرة من الآية ٨٣، وعلى هذا درج الخلق في كلامهم، حتى إن بعضهم يؤثر الصمت على الكلام صوناً وسلامة للأعراض من أن تنالها الألسنة بسوء؛ يقيناً منهم أن للكلمة خطورتها، وللسان شروره وآفاته، فالزواج بكلمة، والطلاق بكلمة، وندخل الإسلام بكلمة، ونخرج منه بكلمة، وتشتعل الحروب بكلمة، وتخمد النيران المتأججة بكلمة.

وما حديث معاذ بن جبل – رضي الله عنه – عنا ببعيد حين سأل رسول الهدى – صلى الله عليه وسلم – عن عملٍ يُدخِله الجنةَ ويُبعده عن النار، قال له: ((أوَلاَ أدُلُّك على مِلاك ذلك كله؟)) قال معاذ –رضي الله عنه –: بلى يا رسول الله، قال: ((كُفَّ عنك هذا))، وأخذ بلسانه –عليه الصلاة والسلام –قال معاذ: وإنَّا لمؤاخَذون بما نتكلم به؟! فقال – صلى الله عليه وسلم –: ((ثكِلتْك أمُّك يا معاذ! وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على وجوههم – أو قال: على مناخرهم – إلا حصائدُ ألسنتهم؟!))(١).

من هنا تأتي خطورة الكلمة، وآثارها في أمن المجتمع وسلامته.

وحسن اختيار الكلمة المناسبة ووضعها في المكان المناسب لها، أمر يشبه وضع خَرَزَة العقد في المكان المناسب بين بقية الخرزات، لتنتظم حبات العقد، إذ لا بد فيه من نظام مخصوص.

يقول ابن القيم: وأصل هذا الباب: قوله تعالى: {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ} [الإسراء: ٥٣] فالشيطان ينزغ بينهم إذا كلم

(١) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ [رقم: ٢٦١٦] وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني (٧/٨٤٥-٨٤٦رقم٣٢٨٤) ،

بعضهم بعضًا بغير التي هي أحسن، فرب حرب كان وقودها جُثثٌ وهَامٌ، أهاجها قبيح الكلام (١).

وقد بلغ من شدة حرص النبي – صلى الله عليه وسلم– على هذا المبدأ أنه كان يدعو إلى التسمية بأحسن الأسماء، كما ورد في سنن أبي داود، بالإسناد الجيد، عن أبي الدرداء رضي اللّه عنه قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: "إِنَّكُمْ تُدْعَوْنَ يَوْمَ القِيامَةِ بِأَسْمائِكُمْ وأسماءِ آبائِكُمْ فأَحْسِنُوا أَسْماءَكُمْ". (٢)

بل إنه كان يغيِّر بعض أسماء أصحابه، من ذلك تغيير اسم عاصية إلى جميلة، ففي صحيح مسلم، عن ابن عمر رضي اللّه عنهما؛ أن النبيّ صلى اللّه عليه وسلم غيَّرَ اسم عاصية وقال: "أنت جميلة" وفي رواية لمسلم أيضاً: أن ابنةً لعمرَ كان يُقال لها عاصية، فسمَّاها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جميلة(٣).

وعبد الحجر، إلى عبد الله، وحزن إلى سهل، وجثامة إلى حسانة، وشهاب إلى هشام وهكذا.

وعن عائشة قالت: جاءت عجوز إلى النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – وهو عندي، فقال لها رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم –: " من أنت؟ " قالت: أنا جثامة المزنية، فقال: "بل أنت حسانة المزنية، كيف أنتم؟ كيف حالكم؟ كيف كنتم بعدنا؟" قالت: بخير بأبي أنت وأمي يا رسول الله، فلما خرجت قلت: يا رسول الله، تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال؟ فقال: "إنها كانت تأتينا زمن خديجة، وإن حسن العهد من الإيمان". هذا حديث صحيح على شرط الشيخين فقد اتفقا على الاحتجاج برواته في أحاديث كثيرة وليس له علة(٤) .

---

(١) ابن القيم في الطرق الحكمية: ١١١/١.
(٢) سنن أبي داود ٢٨٧/٤ برقم ٤٩٤٨.
(٣) (مسلم (٢١٣٩) (١٤) و (١٥) ، وهو في سنن أبي داود (٤٩٥٢).
(٤) الحديث صحيح أخرجه الحاكم في " المستدرك " (١ / ١٥ - ١٦) وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢١٦.

بل أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسمية المولود باسم حسنٍ، لأن الاسم الحسن يترك انطباعاً حسناً لصاحبه وللسامعين، كما نهى صلى الله عليه وسلم عن تسميته باسم قبيح أو اسم غير جائز شرعا، وهذا ملمح عجيب من أبواب الدين، وهو العدول عن الاسم الذي تستقبحه العقول، وتنفر منه النفوس، إلى الاسم الذي هو أحسن منه والنفوس إليه أمْيَل، وكان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الاعتناء بذلك".

– وقال العلامة المناوي في فيض القدير: " وكان المصطفى صلى الله عليه وسلم يشتد عليه الاسم القبيح ويكرهه من مكان أو قبيلة أو جبل أو شخص، ومن تأمل معاني السنة وجد معاني الأسماء مرتبطة بمسمياتها، حتى كأن معانيها مأخوذة منها، وكأن الأسماء مشتقة منها، ألا ترى إلى خبر أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها، وعصية عصت الله "(١).

وقد شمل اعتناء النبي صلى الله عليه وسلم بتغيير أسماء بعض الناس إلى تغيير أسماء بعض القرى والأماكن إذا كان اسمها قبيحاً أو سيئاً، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان إذا سمع اسما قبيحا غيَّره، فمر على قرية يقال لها: عَفْرَة فسماها خضِرَة).

وكذلك غَّير صلى الله عليه وسلم اسم يثرب إلى: المدينة، وطابة، وطيبة، وسبب هذه الكراهة أن يثرب إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة، أو من الثرب وهو الفساد، وكلاهما مستقبح.

ويقول ابن القيم أيضًا في كتابه القيم: إعلام الموقعين: "كم من باطل يخرجه الرجل بحسن لفظه وتنميقه وإبرازه في صورة حق؟! وكم من حق يخرجه بتهجينه وسوء تعبيره في صورة باطل؟! ومن له أدنى فطنة وخبرة لا يخفى عليه

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير - لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي (المتوفى : ١٠٣١هـ) ط دار الكتب العلمية بيروت - لبنان الطبعة الاولى ١٤١٥ ه - ١٩٩٤ م ٣٠٦/١.

ذلك، بل هذا أغلب أحوال الناس؛ ولكثرته وشهرته يستغني عن الأمثلة، بل من تأمل المقالات الباطلة والبدع كلها وجدها قد أخرجها أصحابها في قوالب مستحسنة، وكسوها ألفاظًا يقبلها بها من لم يعرف حقيقتها، ولقد أحسن القائل:

تقول هذا جناءُ النَّحلِ تمدحُهُ ... وإنْ تشأ قلتَ ذا قيءِ الزنابيرِ

مدحًا وذمًا، وما جاوزتَ وصفهما ... والحقُّ قد يعتريه سوءُ تعبيرِ

ورأى بعض الملوك كأن أسنانه قد سقطت فعبَّرها له معبر بموت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده، واستدعى آخر فقال له: لا عليك تكون أطول أهلك عمرًا، فأعطاه وأكرمه وقرَّبه، فاستوفى المعنى، وغيَّر له العبارة، وأخرج المعنى في قالب حسنٍ"(١).

ومن محاسن الفراسة تحسين اللفظ: فقد روي أن الرشيد رأى في داره حزمة خيزران، فقال لوزيره الفضل بن الربيع: ما هذه؟ قال عروق الرماح يا أمير المؤمنين، ولم يقل الخيزران لموافقة اسم أمه.

ونظير هذا: أن بعض الخلفاء سأل ولده –وفي يده مسواك –ما جمع هذا؟ قال: ضدُّ محاسنك يا أمير المؤمنين. (ولم يقل: مساويك – جمع مسواك) وهذا من الفراسة في تحسين اللفظ. وهو باب عظيم النفع، اعتنى به الأكابر والعلماء. وله شواهد كثيرة في السنة النبوية وهو من خاصية العقل والفطنة.

فقد روينا عن عمر رضي الله عنه: أنه خرج يَعُسُّ المدينة بالليل، فرأى نارًا موقدة في خباء، فوقف وقال: "يا أهل الضوء". وكره أن يقول: يا أهل النار.

وسأل رجلًا عن شيء: "هل كان؟ " قال: لا، أطال الله بقاءك، فقال: "قد عُلِّمتم فلم تتعلموا، هلّا قلت: لا، وأطال الله بقاءك".

وسئل العباس: أنت أكبر أم رسول الله –صلى الله عليه وسلم–فقال: هو

(١) راجع: إعلام الموقعين عن رب العالمين - لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى : ٧٥١هـ) - بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد - ط مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة - الطبعة : ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م (٦/ ١٥٣).

أكبر مني، وأنا ولدت قبله.؟

وسئل عن ذلك غياث بن أشيم، فقال: رسول الله –صلى الله عليه وسلم – أكبر مني، وأنا أسن منه.

وكان لبعض القضاة جليس أعمى، فكان إذا أراد أن ينهض يقول: يا غلام، اذهب مع أبي محمد، ولا يقول: خذ بيده، قال: والله ما أخلَّ بها مرة واحدة. ومن ألطف ما يحكى في ذلك: أن بعض الخلفاء سأل رجلًا عن اسمه؟ فقال: سعد يا أمير المؤمنين، فقال: أيّ السعود أنت؟ قال: سعد السعود لك يا أمير المؤمنين، وسعد الذابح لأعدائك، وسعد بَلَع على سماطك، وسعد الأخبية لسرك، فأعجبه ذلك. ويشبه هذا: أن مَعْن بن زائدة دخل على المنصور، فقارب في خطوه، فقال له المنصور: كبرت سنك يا معن، قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين. قال: إنك لجَلْد. قال: على أعدائك. قال: وإن فيك لبقية. قال: هي لك (١).

من هذه النصوص وأمثالها كثير نستطيع أن نتبين خطورة الكلمة وضرورة تحسينها وحسن انتقائها، وأن هذا لا يتوفر لأي أحد، إلا من أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

ثم إن "ألفاظ الأديب التي يستخدمها في فنّه هي نفسها تلك الألفاظ التي يستخدمها جميع الناس في كلامهم، ويتحدثون بها ويكتبون، لكنه يستطيع بهذه الأداة المألوفة حين يحسن التوفيق بين حروفها، وتركيب ألفاظها، واختيار الأصلح منها أن ينطق بالسحر الحلال، الذي تقبله النفس، وينشرح له الصدر، ويمكنه بهذا أن يخرج فنا يفوق جميع الفنون، ويسمو عليها" (٢).

ولا تسل عن اكتمال هذا وتوفره في بيانه الشريف – صلى الله عليه وسلم – فقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه، فكان لا ينطق إلا عن ميراث حكمة، وقد غشِّي بالقبول.

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (هـ٦٩١ – ٧٥١هـ) بتحقيق نايف بن أحمد الحمد ط دار عالم الفوائد - مكة المكرمة - الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ. (١/ ١٠٨).
(٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن – د. عبد الفتاح لاشين ٥٩.

جمال الكلمة في البيان النبوي

الجمال صفة من أبرز صفات البلاغة، وأبرز مميزاتها، فهي تقدم الكلمة والكلام بأسلوب جمالي جامع للفكر ومثير للمشاعر، فهي تحول الكلام من ظاهرة لغوية إلى ظاهرة جمالية، تعجب بها النفوس.

وقد تبارى البلغاء في وصف بلاغة النبي الكريم وفصاحته، وما تميز به كلامه، صلى الله عليه وسلم، من جمال وبلاغة جعلته يأتي في المرتبة الثانية بعد كلام الله تعالى، متربعًا على قمة الأساليب البشرية.

وليس أفضل مما سجله الجاحظ رائد البلاغة العربية واصفًا هذه الخصوصية في كلامه الشريف حيث يقول: "هو الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه وجل عن الصنعة، ونُزِّه عن التكلف... واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي. فلم ينطق إلا عن ميراث حكمته، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويسر بالتوفيق... ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا، ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا أكرم مطلبا، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجا، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه، صلى الله عليه وسلم[١]."

وسينصب حديثنا على جملة من الأسس الجمالية في الكلمة، تحققت في أحاديثه، صلى الله عليه وسلم، ويمكن أن نحددها في العناصر الآتية:

١- جمال اختيار الفرائد [٢] من الكلمات :

تبرز هذه الجمالية في عبقريته، صلى الله عليه وسلم، وبراعته الفائقة في اختيار ألفاظه ومراعاته الفروق الدقيقة بين معاني الكلمات.

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: تحقيق فوزي عطوي. بيروت: دار صعب، ٢٢١/٢.

(٢) الفرائد: جمع فريدة، وهي اصطلاح بلاغي ذكره ابن أبي الإصبع في كتابه: تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر بعنوان: باب الفرائد (ص: ٥٧٦) يقول: "هذا باب مختص بالفصاحة دون البلاغة، لأن مفهومه إتيان المتكلم بلفظة تتنزل من كلامه منزلة الفريدة من حب العقد تدل على عظم فصاحته وقوة عارضته، وشدة عربيته، حتى إن هذه اللفظة لو سقطت من الكلام لعز على الفصحاء غرامتها".

فالبيان النبوي لا يختار لفكرته ألفاظًا تأتي هكذا جزافًا، أو حسبما يتفق بل تأتي تعبيراته في قمة التناسق مع الفكرة، بحيث لا يمكن أداء المعنى المراد بدقة، ومطابقًا لمراد النبي الكريم – ﷺ – مهما اجتهدنا في استبدال الكلمات بما يماثلها.

ومن خلال تأمُّلي ومعايشتي الطويلة للبيان النبوي استقر لديَّ أن الكلمات في داخل النص النبوي ليست ألفاظًا جوفاء مجردةً من معانيها، ولا من ملابسات الحدث الذي تعبر عنه، ولكنها تعبر أصدق تعبير عن المعنى الذي سيقت من أجله، وتعكس وجهة نظر المتكلم الذي يحاول التأثير في نفسية المخاطب.

ومعلوم أن اللغة ثرية بالإمكانات والعطاءات التي لا حدود لها وعلى هذا فالاختيار لا يقتصر – بداهة – على اختيار الألفاظ فقط، وإنما يمتد ليشمل الاختيار في نظم هذه المفردات وتأليفها في تراكيب وجمل.

وننتقل إلى المعالجة البلاغية لاختيار الألفاظ ودورها في بناء النص الشريف.

– انظر إلى جمال التعبير بكلمة (شيء) في قوله –صلى الله عليه وسلم –: فيما رواه ابنِ عباسٍ رضيَ اللَّه عنهما: قالَ رسولُ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: "إنَّ الَّذي لَيس في جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنَ القُرآنِ كالبيتِ الخَرِبِ". (١) .

وما توحي به من ظلال رفيفة على المعنى، حيث تصور مدى الأثر العظيم الذي يحدثه أقل قدر من القرآن على قارئه، ولعلك تحس بمعنى ذلك في كلمة (شيء)، ولعل اختيار صفة الخراب اختيار دقيق، (فالخَرِب) صفة مشبَّهة تدلّ على ثبوت الصفة وتأصّلها في البيت المتهدم الخالي من العمران.

ومهما استبدلنا هذه الكلمة (الخَرِب) بغيرها من الكلمات التي في معناها أو قريبة منها مثل المتهدم، أو المتكسر، أو المهجور، أو المتروك، كل هذه الكلمات

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

التي تشترك مع كلمة الخرب في بعض المعاني لا يمكن أن تنوب مكان تلك الصفة المشبهة، لما لهذه اللفظة من ظلال وإيحاءات ثرية.

وفي "الصحيحين" (١) من حديث سهل بن حنيف، قال: قال رسول الله:

"لا يقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسي، ولَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ (٢) نَفْسِي"

فكره «خَبُثَت» : هَرَباً مِنْ لْفظ الخُبث والخَبيث. و(خبثت ولقست وغثت) متقاربة المعنى، فكره رسول الله – ﷺ– لفظ "الخبث" لبشاعته، وأرشدهم إلى العدول إلى لفظ أحسن منه، وإن كان قريبًا من معناه، تعليمًا للأدب في المنطق، وإرشادًا إلى مبدأ استعمال اللفظ الحسن، وهجر القبيح في الأقوال، كما أرشدهم إلى ذلك في الأخلاق والأفعال (٣).

ومن ذلك أيضًا التعبير بـ " يوطِّن " بدلاً من " يجلس " أو " يتخذ " أو ما شاكلهما في قوله (صلى الله عليه وسلم): « لَا يُوَطِّنُ رجل مسلم الْمَسْاجِدَ للصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ إِلَّا تَبَشْبَشَ اللَّهُ – ﷻ – بِهِ حين يخرج مِنْ بيته كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إذا قدم عليهم.» (٤).

---

(١) البخاري رقم (٦١٨٠) (١٠/ ٥٧٩)، ومسلم (٢٢٥١) (١٥/ ١١) من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه. ورواه البخاري (٦١٧٩)، ومسلم (٢٢٥٠) من حديث عائشة - رضي الله عنها -.

(٢) لقست: أي غثت. واللَّقس: الغثيان. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٦٣). وقيل معناه: ساء خلقها. فتح الباري (١٠/ ٥٧٩).

(٣) انظر: أعلام الحديث للخطابي (٣/ ٢٢٠٩)، شرح السنة (١٣/ ٣٥٩)، شرح مسلم للنووي (١٥/ ١١)، تحفة المودود بأحكام المولود (٣٧)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢٦٤/٤).

(٤) الأمثال في الحديث النبوي لأبي الشيخ رقم ٢٩٠ ص٣٣٩، ٣٤٠، أخرجه الحاكم في المستدرك ٢١٣/١، وابن ماجه ٢٦٢/١ رقم ٨٠٠، ومسند أحمد ٣٢٨/٢، ٤٥٣، ومعنى تبشبش: يقال: لقيته فتبشبش بي، وأصله تبشش، فأبدلوا من الشين الوسطى باء، كما قالوا: تجفف، تبشبش، وقال ابن الأعرابي: البش: فرح الصديق بالصديق في المسألة والإقبال عليه، والتبشبش في الأصل: التبشش، فاستثقل الجمع بين ثلاث شينات، فقلب إحداهن ياء " لسان العرب مادة " بشش " ٢٨٩/١.
- ويقول الفيروزبادي: " البَشُّ والبَشَاشَةُ: طلاقةُ الوجْهِ، بَشِشْتُ وأبَشُّ، واللُّطْفُ في المَسْأَلةِ، والإقْبَالُ على أخيكَ، والضَّحِكُ إليه، وفَرَحُ الصَّديق بالصَّديق. وتَبَشْبَشَ به: آنَسَهُ، وواصَلَهُ، وهو من الله تعالى الرضَا، والإكْرامُ. - القاموس المحيط للفيروزبادي مادة: ٠بشش).

فلفظة: " يوطِّن " تصور كأن المساجد أصبحت له سكنًا ومأوى وموطنًا، فهذه اللفظة مصورة وموحية، إذ هي تصور الوطنية الحقيقية لدى المسلم، وتوحي بتملك حب المساجد لجوارح هؤلاء وقلوبهم فأحبوها مكانًا وأهلاً، ومنهلاً لكل خير، كما أن التشديد في " يوطِّن " يفيد المبالغة في الفعل، ولا يمكن لكلمة " يجلس " أو " يتخذ " أو ما شاكلهما أن يؤديا ما تؤديه تلك اللفظة الفريدة.

٢- جمال الكلمة بروعة التصوير:

من السمات البارزة في البيان النبوي القدرة الفائقة في اختيار الألفاظ الدقيقة المصورة الموحية، فالألفاظ لها قدرة بديعة على منح الحياة للمعاني المراد تصويرها، فهناك من الألفاظ ما يمكن أن يكون بمثابة تصوير للوحة كاملة أخَّاذة، فيها الظلال المناسبة للمعنى، وكذا الألوان الزاهية، أو الشاحبة، حسب ما يتطلبه المقام، أو يستدعيه الحال، وهذه الألفاظ في التركيب بمثابة النقوش الدقيقة في اللوحة المتناسقة الألوان، التي نُقِشت بيد صنَّاع ماهر.

ومن الكلمات التي تصور الود والتواصل والمحبة الكاملة: ما ورد عنه – ﷺ– تعبيرًا عن فرح الله ورضوانه عن العبد الحريص على صلته بخالقه عن طريق الصلاة، فيتخذ من المساجد موطنًا، وذلك فيما روي عن أبي هريرة – ﷺ– أن رسول الله – ﷺ– قال: « لَا يُوَطِّنُ رجل مسلم الْمَسْاجِدَ للصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ إِلَّا تَبَشْبَشَ اللَّهُ – ﷻ – بِهِ حين يخرج مِنْ بيته كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إذا قدم عليهم.» [(١)].

---

(١) الأمثال في الحديث النبوي لأبي الشيخ رقم ٢٩٠ ص٣٣٩، ٣٤٠، أخرجه الحاكم في المستدرك ٢١٣/١، وابن ماجه ٢٦٢/١ رقم ٨٠٠، ومسند أحمد ٣٢٨/٢، ٤٥٣، ومعنى تبشبش: يقال: لقيته فتبشبش بي، وأصله تبشش، فأبدلوا من الشين الوسطى باء، كما قالوا: تجفف، تبشبش، وقال ابن الأعرابي: البش: فرح الصديق بالصديق في المسألة والإقبال عليه، والتبشبش في الأصل: التبشش، فاستثقل الجمع بين ثلاث شينات، فقلب إحداهن ياء " لسان العرب مادة " بشش " ٢٨٩/١.

- ويقول الفيروزبادي: " البَشُّ والبَشَاشَةُ: طلاقةُ الوجْهِ، بَشِشْتُ وأبَشُّ، واللُّطْفُ في المَسْأَلةِ، والإقْبَالُ على أخيكَ، والضَّحِكُ إليه، وفَرَحُ الصَّديق بالصَّديق. وتَبَشْبَشَ به: آنَسَهُ، وواصَلَهُ، وهو من الله تعالى الرضَا، والإكْرامُ. - القاموس المحيط للفيروزبادي مادة: ٠بشش).

فكلمة " تبشبش، يتبشبش" تصور الحب في قمته، والرضا الكامل عن العبد الحريص على توثيق صلته بخالقه ومولاه، فالكلمة في حد ذاتها مصورة لمدى الحب من الله لذلك العبد، وكذلك كلمة" يوطن " تصور مدى الحب المتبادل بين العبد والمسجد، ومدى تعلقه به، وتفانيه في الدفاع عنه، وكأن المسجد صار موطنًا له، بما تحمله كلمة الوطنيَّة من معاني الحب والإخلاص والتفاني والإلف، فهاتين الكلمتين بمثابة صورتين موحيتين.

ففي هذا الحديث تشبيه فرح الله تعالى ورضاه عن العبد الذي اتخذ المساجد موطنًا لذكر الله والصلاة، بفرح أهل الغائب بغائبهم إذا عاد إليهم بعد يأس.

ويعلق ابن منظور على هذا الحديث فيقول: " وهذا مثل ضربه لتلقيه جل وعز إياه ببره وكراماته وتقريبه إياه " (١).

وتبرز قيمة هذا التشبيه في توضيح هذا المعنى الغيبي وتقريب الأمر غير المعهود إلى الأذهان بضرب المثل بشيء معهود مألوف، لا يقربه شك، فصورة الفرحة الغامرة التي تسيطر على أهل الغائب عندما يعود إليهم صورة معهودة لدى الناس، ولكن كيفية فرح الله بعباده (أهل المساجد) وتقريبهم منه، وبرهم بالكرامات، لا يُدرَك كُنْهُها.

والتعبير البياني في هذا المثل القياسي التوضيحي يزخر بدقائق نفيسة يجدر التنويه إليها:

١- التعبير بالماضي في " تبشبش " وبقية سياق الحديث بالمضارع " يوطن .. يخرج .. يتبشبش " يصور تحقق وقوع تلقي الله لعبده ببره وكرمه وغير ذلك، وكأنه بمجرد الهم والبدء بالطاعة ينال رضا الله، يؤيد ذلك قوله:" حين يخرج من بيته " فرضوان الله يشمله ابتداء من خروجه من بيته قاصدًا المسجد للصلاة، أو الذكر، ويؤيد هذا حديث رسول الله ﷺ: " من غدا إلى المسجد أوراح أعد الله له

(١) لسان العرب مادة (بشش) ٢٨٩/١.

نزلاً في الجنة كلما غدا أوراح "[١]

٢- التعبير بـــ " الغائب " دون المسافر أو البعيد، يصور الوحشة والفقدان واللهفة، والانشغال والحنين الزائد من جانب كل من الغائب وأهله، كذلك المســلم يحس بالوحشة وضياع ذاته، ولهفته وانشغاله، في بعده عن بيوت الله، ويجد في نفسه حنينًا زائدًا، وشوقًا متزاحمًا للقاء الله في الصلاة، وإذا كان للغائــب أهــل ينتظرونه ويتمنون عودته، فيكفي المسلم اعتزازًا أن الله - ﷻ - هو أهله، فأهل ذكره أهل محبته، وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته، يستضيفهم في بيوتــه، وإذا كان أهل الغائب يغدقون عليه صنوفًا من الهبات والعطايا؛ فمــا بالنــا بكــرم الله وجزيل عطائه لمن يزوره في بيته؟ وبيوته المساجد، فيغفر لهم الذنوب، ويوسع لهم الأرزاق، ويقيهم من البلايا والشرور، ويدخلهم الجنات إلى غير ذلك ممــا لا يحصى ولا يعد من نعم الله وهباته.

كما يوحي التعبير بكلمة " الغائب " أيضًا إلى أن المتغيب عن مواطن الــذكر أعني (المساجد) يعد في غياب عن الله، وعن الفطرة التي فطر النــاس عليهــا، والغائب يأنس بأهله ويأنسون إليه، وكذلك عمار المساجد يأنسون بالمكث فيهــا، فيجدون فيها راحتهم، حيث الصلاة، قرة أعينهم "وجعلت قرة عيني في الصلاة"[٢] " يا بلال أرحنا بالصلاة" [٣] والطمأنينة حيث ذكر الله؛ فقد قال تعالى:﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [٤]

٣- التعبير بــ " إذا " في قوله " إذا عاد إليهم " والتي تفيد – كمــا يقــول النحاة – توقع حدوث ما بعدها، هذا التعبير يعطي معنى الأمل في العودة، والقدوم من العبد إلى مولاه وخالقه، وهذا يتناسب مع الفطرة التي غالبًا تعيد العبــد إلــى

(١) فيض القدير للعلامة المناوي ١٨٣/٦ رقم ٨٨٧٠.
(٢) أخرجه النسائي في سننه " عشرة النساء " ٦١/٧، وأحمد في مسنده ١٢٨/٣، ١٩٩
(٣) أخرجه أبو داود ٤٩٨٥/٤، وأحمد في مسنده ٣١٤/٥، ٣٧١
(٤) من الآية ٢٨ من سورة الرعد.

ربه، وتذكره به، عن طريق التوبة والإنابة والاستغفار، فبابه مفتوح، ولا حاجب عليه، وهذا ما لا يفيده التعبير بـــ " إن " التي تفيد الشك في حدوث ما بعدها.

وهكذا يتضح بما لا يدع مجالاً للشك أن جمال الصورة لا يقــف عنــد حــد تمثيل طرف بآخر لإيضاحه، أو لإلحاق ناقص بكامل، أو مــا شــاكل ذلــك؛ بــل يستدعي التحليل البياني – إن أردنا بلاغة تتغلغل في صميم الصور البيانية لتبرز سر بلاغتها وجمالها – التعرض للَّبِنات التي تتكون منها الصورة، فالألفــاظ لهــا دخل كبير في توضيح المعاني وتقريبها، كما يتطلب أيضًا إبراز دور السياق فــي كشف خبيئات المعاني، وتجلية غوامضها، وإكمال نواقصها.

وهذا يثبت روعة البيان النبوي الخلاق، الذي يرسُم للأشياء معاني خفيــة رائعة، تتخلل من خلالها إلى مسارب النفس الخفية.

فعندما نتأمل في حديث الرسول ﷺ عن القرآن الكريم يتبين لنا أن كل لفظة مقصودة لذاتها في موضعها، إذ لا يمكن تغييرها أو الاستعاضة عنها، كما نلاحظ أن تلك الكلمات والتعبيرات تأتي متوافقة مع طبيعة المعنى الذي يتحدث عنه النبي الكريم.

انظر مثلاً إلى كلمة (الحنظلة) التي شبه بها حال المنــافق الــذي لا يقــرأ القرآن في قوله: " ومَثَلُ الفاجِرِ الَّذي لا يقرَأُ القُرآنَ كمَثَلِ الحَنظلةِ طَعْمُها مُرٌّ ولا ريحَ لها "(١).

فــ "الحنظل الشجر المر(٢) ألا تلحظ من خلال إيحاء وجرس هــذه الكلمــة بأنها تعبر عن تلك الشخصية الخبيثة غير المستساغة؟ حيث جاءت متوافقة مــع

(١) رواه البخاري في صحيحه برقم ٥٠٢٠.
(٢) الحنظلة : هي نبات ثمرته في حجم البرتقالة ولونها ، فيها لب شديد المرارة، مِنْ فصِيلَةِ القَرْعِيَّاتِ، نَبَاتُهُ بَرِّيٌّ يُشْبِهُ ثَمَرَةَ البِطِّيخ ، لَوْنُهُ بَيْنَ الاخْضِرارِ وَالاِصْفِرَار، بِدَاخِلِهِ حَبَّاتٌ مُرَّةٌ وَسامَّة، يُسْتَعمَلُ فِي الأَدْوِيَةِ الطِّبِّيَّةِ، وقد صار المثل: أَمَرُّ مِنَ الحَنْظَلِ، يُضْرَبُ كِنَايَةً عَنِ المَرارَةِ، القاموس المحيط مادة: حنظل.

طبيعة المعنى المراد، فضلًا عما بها من إيقاع تولد من جرس حروفها الذي يصور مدى مرارتها وعدم القدرة على بلعها؛ لما فيها من مرارة وسُمِّيَّة.

وانظر إلى الدقة المتناهية في اختيار الكلمات ووضعها في موضعها الملائم لها. لتؤدي دورها في بلاغة المعاني وتصويرها. " خَرَجَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّمَ ونَحْنُ في الصُّفَّةِ، فَقالَ: أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَومٍ إلى بُطْحَانَ، أَوْ إلى العَقِيقِ، فَيَأْتِيَ منه بنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ في غيرِ إثْمٍ، ولَا قَطْعِ رَحِمٍ؟ فَقُلْنَا: يا رَسولَ اللهِ، نُحِبُّ ذلكَ، قالَ: أَفلا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إلى المَسْجِدِ فَيَعْلَمُ، أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِن كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ له مِن نَاقَتَيْنِ، وثَلَاثٌ خَيْرٌ له مِن ثَلَاثٍ، وأَرْبَعٌ خَيْرٌ له مِن أَرْبَعٍ، ومِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإبِلِ."(١).

فكلمة (يحب) تتواءم مع تحصيل المال (النوق العظيمة) إذ تصور مدى التصاق حب المال بقلب الإنسان وتغلغله في أعماقه.

– وكلمة (يغدو) تصور حال الإنسان وهو ذاهب لتحصيل الرزق في وقت الغداة وهو وقت البكور الذي تلتمس فيه الأرزاق وهذا يذكرنا بحديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – "لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً".

ثم اختيار (الناقة) دون الجمل، لأنها كما يقول ابن الأثير الجزري: "النوق أنفس الأموال عند العرب، ولهذا شبه النبي – صلى الله عليه وسلم – الآيتين بناقتين كوماوين لا بجملين "(٢).

كذلك من الأمثلة الواضحة على أن هناك كلمات مصورة بسلاستها وتناسقها مع المعنى المراد تصويره، قوله – ﷺ– في شأن الجنة فيما رواه أسامة بن زيد – رضي الله عنهما : " أَلَا مُشَمِّرٌ لَهَا، هِيَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ رَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَنُورٌ يَتَلَأْلَأُ،

(١) صحيح مسلم - مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى:٢٦١هـ)المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي - الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت – ٥٨٢/١ برقم ٨٠٣.
(٢) شرح سنن ابن ماجه للسيوطي وغيره، باب الهدى من الاناث والذكور، برقم ٣٠٩٩.

وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ، وَزَوْجَةٌ لَا تَمُوتُ فِي خُلُودٍ، وَنَعِيمٍ فِي مَقَامٍ آبِدٍ." (١).

" فكلمات هذا الحديث تصور نعيم الجنة في هذه المناظر الآسرة العجيبة، فهي ريحانة تهتز، تشتاق الأنوف للاستمتاع بعطرها، " ونور يتلألأ " فكلمة " يتلألأ " تجعل انبهار الإنسان أشد، ونظرته أحدّ، فالتلألؤ بالنسبة للنور يوحي بأن الإنسان يعيش في أطياف النور، المتعددة الألوان، " ونهر يطرد " فالنهر يتدافع بأمواجه في سرعة متتابعة، فهو مستمر لا توقف في مائه أبدًا، مما يوحي بالنعيم المتزايد المتناهي، والذي يبعث الطمأنينة في النفس.

"وزوجة لا تموت ...." إن هذه الألفاظ تصور نعيم الجنة بصور حية، تتحرك، وتجذب النفوس للعمل، حتى تصل إلى هذا النعيم المقيم.

وهذه الصور ما هي إلا لتقريب ماهية الجنة، حتى يرغب النفوس إليها، أما عن حقيقتها فهذا مما لا يدرك كنهه، ولا يمكن للعقل تخيله.

وانظر إلى كلمة (فرسن) في قوله صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: ((يا نساء المسلمات، لا تَحقرنَّ جارة لجارتها، ولو فِرسِن شاة))؛ متفق عليه.(٢)

"والفِرْسِنُ مِنَ الْبَعِيرِ: بِمَنْزِلَةِ الْحَافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ، قَالَ: وَرُبَّمَا اسْتُعِيرَ فِي الشَّاةِ. وَالَّذِي لِلشَّاةِ هُوَ الظِّلْفُ، ... و"الفِرْسِنُ: عَظْمٌ قَلِيلُ اللَّحْمِ، وَهُوَ خُفُّ البعير كالحافر للدابة".(٣)

---

(١) أمثال الحديث المروية عن النبي صلى الله عليه وسلم، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (المتوفى: ٣٦٠هـ) تحقيق: أحمد عبد الفتاح تمام، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت،
الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ ه، ص ١٤٧، الحديث أخرجه ابن ماجه ١٤٤٩/٢ برقم ٤٣٣٢.

(٢) قال أهل اللغة : هو بكسر الفاء والسين وهو الظلف ، قالوا : وأصله في الإبل ، وهو فيها مثل القدم في الإنسان ، قالوا : ولا يقال إلا في الإبل، ومرادهم أصله مختص بالإبل ، ويطلق على الغنم استعارة . وهذا النهي عن الاحتقار نهي للمعطية المهدية، ومعناه : لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها ، بل تجود بما تيسر وإن كان قليلا كفرسن شاة ، وهو خير من العدم. صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة باب ٢٩ حيث ٩٠/٨٩.

(٣) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ص ٤٠٤.

تأمل تصوير تلك الكلمة لأقل القليل من اللحم، عندما يهديه الجيران إلى جيرانهم، وهو تلك المُزْعَة من اللحم العالقة بحافر الشاة.

٣- جمال الكلمة بإيقاع جرس أصواتها:

من الألفاظ ما يكون بمثابة اللمسة الحانية التي تمثل الود الكامل الصافي والسلاسة في التعبير، ومنها ما هو أشبه بقارعة تصُخُّ الآذان، وتستوقف النفوس، وتهزها هزًّا عنيفًا لتوقظها من غفلتها.

ولعلَّ هذا التنوع بين السلاسة والخشونة أو الحنوِّ والجفوة، ناتج تبعًا للموقف، وطبائع المخلوقين، وتفاوتها من نفوس طيبة، تستجيب لأدنى داعٍ، وللإشارة واللمحة الدالة، ونفوس لا يردعها إلا الزجر والتعنيف والتقريع.

ومن الكلمات التي تصور المعنى المراد أدق تصوير بجرسها ودلالة معناها كلمة (لُعاعَة) فيما ورد في خطاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – للأنصار حين وجدوا في نفوسهم لمَّا أَعْطَى رسول الله المهاجرين ليتألّف قلوبهم ولم يُعْطهم، فجمعهم وقال:

"أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنَ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتِ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ» قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ، حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقُوا".(١).

أرأيت غرابة هذه الكلمة وتصويرها لمتاع الدنيا القليل الفاني الذي سرعان ما يزول، وقد صنَّف العلماء هذه الكلمة في كتب الغريب، (الزمخشري وابن الأثير

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٥٣/١٨. برقم ١١٧٣٠.

وابن الجوزي وابن قتيبة وغيرهم) فقالوا:

" اللُّعاعة: أول ما يبدو من النَّبْت وهو طريّ ناعم، أو هي: بقْلةٌ خضراء ناعمة شُبهت بها زهرةُ الدنيا ونعيمُها؛ في قلة بقائِها من الدنيا " (١).

واللُّعَاعَةُ: واحدة اللُّعاع، ومنه: "إنما الدنيا ساعة، ومَتاعها لُعاعة: أي قليلة البقاء كالنبْت الأخضر. واللُّعَاعَةُ البقيةُ اليسيرةُ من كل شيء. ويقال: بقِيَ في الإناء لُعاعة.

ويقال: ما بقي في الدنيا إلا لُعاعة. واللُّعَاعَةُ الجُرعة من الشَّراب. ولُعاعة الإناءِ: صَفْوَتُه. واللُّعَاعَةُ الخِصبُ. قال أَبو عمرو: واللُّعاعةُ الكَلأُ الخفيف، رُعِيَ أَو لم يُرْعَ. واللُّعاعةُ: ما بقي في السِّقاء، وفي الإناءِ لُعاعةٌ: أَي جَرْعةٌ من الشراب، ولُعاعةُ الإناء: صَفْوتُه، قال اللحياني: بَقِيَ في الإناءِ لُعاعةٌ أَي قليل."(٢).

- وانظر إلى جمال التعبير بـ«خماصًا، وبطانا» وتصويرهما لمعانٍ عدة في حديث النبي الكريم فيما رواه ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «لو أنكم توكلون على الله حقَّ توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا» (٣).

---

(١) انظر كشف اللثام شرح عمدة الأحكام- شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨ هـ) تحقيق: نور الدين طالب -الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، دار النوادر – سوريا - الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م ٤٤٨/٣. غريب الحديث لابن قتيبة ٣٠٦/١، النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥٠٧/٤، الفائق في غريب الحديث للزمخشري ٣١٧/٣.

(٢) لسان العرب لابن منظور، مادة (لعع).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب في التوكل على الله (٤/ ٥٧٣)، رقم: (٢٣٤٤)، وابن ماجه، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين (٢/ ١٣٩٤)، رقم: (٤١٦٤)، وأحمد (١/ ٣٣٢)، رقم: (٢٠٥). وقال الترمذي: حديث حسن صحيح معناه: تذهب أول النهار خماصًا: أي ضامرة البطون من الجوع، وترجع آخر النهار بطانًا: أي ممتلئة البطون.

وتأمل كيف تصوِّر الكلمتان في سياق الحديث ذلك التوجيه النبوي من الناحية الطبية، والذي يتمثل في الأكل عن جوع لا عن شبع، ثم إن كلمة (خماصًا) تصور ضمور البطن مع الجوع، بما تحمله تلك الكلمة من الكناية الجميلة المعبرة عن الجوع بأجمل لفظ وأدقه، فيلزم من ضمور البطن الجوع، كما أنه يلزم من البطنة الشبع، فهي كناية أخرى عن الشبع.

ولعل هذا التعبير الكنائي يصور الجوع والشبع بصورة لطيفة غير صريحة، فدليل الجوع ضمور البطن، ودليل الشبع امتلاء البطن.

يقول ابن منظور:" الخَمْصانُ والخُمْصانُ: الجائعُ الضامرُ البطنِ، والأُنثى خَمْصانةٌ وخُمْصانةٌ، وجَمْعُها خِمَاصٌ..." (١).

- بل انظر إلى كلمة (فصَرَعْنَهُ) وما تصوره من مشهد التصارع والغلبة والاقتتال في حديث خير الأنام حين يقول: "«مثل الذي يجتنب الكبائر، ويقع في المحقرات، كرجل لقي سبعًا فألقاه حتى نجا منه، ثم فحل إبل فكذلك، ثم فحل جمل فكذلك، حتى نجا مما يتخوف، فلدغته نملة فأوجعته، ثم أخرى حتى اجتمعن عليه فصرعنه، فكذلك الذي يجتنب الكبائر ويقع في المحقرات» (٢).

أرأيت كيف تصور تلك الكلمة مشهد التصارع الناتج من اجتماع النمل على ذلك الرجل؟!

وهذا المشهد يصور مغبة الاستهانة بالصغائر التي يُظن أنها أمر يسير، ولكن اجتماع تلك الصغائر يصرع الإنسان الذي يأتيها ويهلكه.

وهكذا نحس بروعة التعبير وعظمته واقتداره في اختيار كل لفظة في مكانها الملائم، بحيث لا يقوم غيرها بأداء المعنى كاملًا كما تقوم هي به، فضلًا عن ثراء الصورة وامتلائها بالمعاني الراقية ذات العطاء الممتد.

---

(١) لسان العرب مادة (خمص).
(٢) الأمثال في الحديث النبوي لأبي الشيخ رقم (٣٧١) (ص٤١٦).

وما أدق دلالة قوله: (المحقرات) وتصويرها لصغائر الذنوب، إذ تصور هذه اللفظة استهانة هؤلاء واحتقارهم واستهزاءهم بالذنوب واجتراءهم عليها، فهي لا تمثل شيئًا في نظرهم، يفسّر ذلك حديث آخر لرسول الله يقول فيه: عن ابن مسعود –رضي الله عنه– : "إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كَذُباب مرّ على أنفه، فقال به هكذا" وأشار الراوي بيده فوق أنفه (القصد حينما يستخدم الإشارة في الحديث كقوله أشار الراوي بيده فوق أنفه)؟.

فأنت ترى أن لفظة الذباب – بما استقر في الأذهان من تفاهته وحقارته عند الناس – تصوِّر درجة الاستهانة بالذنوب واحتقارها لدى هؤلاء الفجرة الذين لا يراعون لله حرمة.

وانظر إلى كلمات هذا الحديث النبوي الشريف التي تصور حقيقة المؤمن وطبيعة حاله، عَنْ مَكْحُولٍ، مُرْسَلا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُونَ هَيِّنُونَ لَيِّنُونَ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ، إِنْ قِيدَ انْقَادَ، وَإِنْ أُنِيخَ عَلَى صَخْرَةٍ اسْتَنَاخَ».

"وفي السلسلة الصحيحة جاء برواية: " المؤمنون هينون لينون مثل الجمل الألف الذي إن قيد انقاد، و إن سيق انساق، و إن أنخته على صخرة استناخ[١] .

– تأمل كلمات هذا الحديث لتلمس مدى تصويرها لسلاسة المؤمن ولين خلقه: (هَيِّنُونَ – لَيِّنُونَ – الأَنِفِ – انْقَادَ – انساق – اسْتَنَاخَ).

ينقل الطيبي عن ابن الأعرابي: العرب تمدح بـ (الهين واللين)... وهين فيْعِل من الهون، وهو السكينة والوقار والسهولة، فعَيْنُه واو، وشيء هين أي سهل.

(١) مسند أحمد ٢٨-٣٧٠ السلسة الصحيحة الحديث رقم ٩٣٦، والجمل الْأنف: الَّذِي قد عقره الخطام أو الْبرة، فَلَا يمْتَنع على قائده فِي شَيْء للوجع الَّذِي بِهِ، وَقيل: الْجمل الْأنف: الذلول. شرح السنة للبغوي – ١٣-٨٦.

وقوله: (كالجمل الآنف) أي المأنوف، وهو الذي عقر الخشاش أنفه، فهو لا يمتنع على قائده للوجع الذي به. وقيل: الآنف الذلول... ومعناه: لينون لينا مثل لين الجمل الآنف.

ومعنى الحديث: أن المؤمن شديد الانقياد للشارع في أوامره ونواهيه. وقوله: (استناخ) إيذان بكثرة تحمل المشاق؛ لأن الإناخة على الصخرة شاقة (١) ثم يقول: ولعمري هذا غاية في التواضع وخفض الجناح (٢).

فكلمة (هينون) تصور السكينة والوقار والسهولة، وكلمة (لينون) تصور سهولة التشكل والمطاوعة والسمع والطاعة لأمر الله ورسوله، واللين في أيدي المؤمنين.

وعن سهل بن معاذ، عن أبيه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من كظم غيظاً وهو يقدر على أن ينفذه دعاه الله على رءوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء)). رواه الترمذي، وأبو داود، وقال الترمذي: هذا حديث غريب. [٥٠٨٨].

تأمل كلمة (كظم) وكلمة (غيظ) ومدى تصويرهما لاحتباس شيء شديد على النفس، يقال: كظَم الرجُلُ على غيظِه : كتَمه؛ حبَسه وأمسك على ما في نفسه منه على صَفْح أو غيظ...

والغَيْظُ : شعورٌ بالغضَب الشديد من إِساءة يُلْحِقها به أَحدٌ .

– عن حارثة بن وهب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر)) متفق عليه. وفيه رواية لمسلم: ((كل جواظ زنيم متكبر)).

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن ١٠- ٣٢٣٧.
(٢) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن ٣٢٣٧/١٠.

– عن ابن عمر، قال: قال رسول الله: ((ما تجرع عبد أفضل عند الله عز وجل من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله تعالى)). رواه أحمد (١).

٤- جمال الكلمة بغرابتها:

ويكمن جمال هذا النوع من الكلمات من غرابة الكلمة ووعورتها، وصعوبة النطق به أحيانًا، ومن هذه الكلمات ما يكون طرقه شديدًا، ووقعه قويًّا:

من ذلك قوله – ﷺ– فيما رواه أبو هريرة: " إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُبْغِضُ كُلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ صَخَّابٍ فِي الأَسْوَاق، جِيفَةٍ بِاللَّيْلِ، حِمَارٍ بِالنَّهَارِ، عَالِمٍ بِالدُّنْيَا، جَاهِلٍ بِالآخِرَةِ ".(٢)

فما إن تطرق الأسماع كلمات هذا الحديث النبوي الشريف حتى يُلْقَى في روع الإنسان، ويتخيل في ذهنه تلك الصفات القبيحة، من خلال جرس الألفاظ، واستدعاء معانيها.

إن كلمة في الحديث تثير بجرسها معاني شتى، وتصور تلك الصفات القبيحة أتم تصوير، انظر إلى قوله – ﷺ– : "جعظري، جواظ "، والجعظري: هو الفظ الغليظ المتكبر، وقيل: هو الذي ينتفخ بما ليس عنده، وفيه قِصَر.

والجواظ: قيل: الجموع المنوع، وقيل: كثير اللحم، المختال في مشيته. (٣).

والكلمتان بحروفهما وجرسهما توحيان بأكثر من هذا، فلو أن الإنسان يجهل معناهما لتخيل أن هذا النموذج البشري المتحدث عنه غاية في القبح، والفظاظة، والغلظة، وسوء الطباع.

و" أحسب أن لو نودي بإحدى هاتين الكلمتين " جعظري – جواظ " إنسان

---

(١) رقم ٥١١٦.

(٢)رواه مسلم ١٨٧/١٧، الترمذي ٣٣١/٧، ٣٣٢، تحفة الأحوذي، ضبط ومراجعة / عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدنية المنورة، بلفظ " ألا أخبركم بأهل النار ؟ كل عتل جواظ متكبر.

(٣) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي ١٨٧/١٧، واللسان مادة " جعظر ".

من أهل الأرض لغته أي لغة لثار الغضب في وجهه لما يتصوره وراء اللفظ من قبح بالغ مبهم.

لقد ناسب – ﷺ– بين المعاني والكلمات مناسبة كاملة: فالثقل والطول في اللفظ يصور الثقل والامتداد في الموصوف، وقد جاء (جواظ) على صيغة المبالغة، مضعف العين ممتد الواو مختومًا بالظاء التي ينتهي لديها إفراط الغلظ.

أما (الجعظري) فناهيك بما يجري له لسانك تصويرًا لمدلولها، فدع لسانك يرسم في مخيلتك هذا (النموذج) واعلم أنه صنف من أهل النار.

إن لطيفة من دقة البيان النبوي تفرغ المكان لتفظيع الصفتين، فقد حلَّا في الحديث محل الموصوف، فدل كل منهما على الذات والصفة، حتى ترى الذات قد ذابت في الصفة، كمًّا وكيفًا.

هذا فضلاً عما في المثل النبوي من كلمات أخرى تزيد من قبح هذا النموذج البشري، كقوله – ﷺ – :" سخاب في الأسواق، جيفة الليل، حمار النهار "، فهو فوق ما سبق شديد الصياح في شر البقاع، في الأسواق من أجل طلب الدنيا، وهذا من سمات المنافقين كما ورد في الأثر عنهم: أنهم " خشب بالليل، سخب بالنهار" يقول: إذا جن عليهم الليل سقطوا نيامًا كأنهم خشب، فإذا أصبحوا تساخبوا على الدنيا شحًّا وحرصًا، والسخب والصخب: بمعنى الصياح." (١).

فكلمة " صخَّاب ": صيغة مبالغة تصور طريقته السيئة في طلب الدنيا.

وكلمة " جيفة ": تصور بإيحاء معانيها تشاغله وتلهيه عن طاعة الله، وأنه صار جيفة لا تتحرك. (٢).

---

(١) ينظر: لسان العرب مادة (سخب).

(٢) والجيفة جثة الميت إذا أنتنت، وفي حديث ابن مسعود: " لا أعرف أحدكم جيفة ليل، قطرب نهار " يسعى طول نهاره لدنياه، وينام طول ليله كالجيفة التي لا تتحرك، لا يفكر في آخرته، المعجم الوسيط، مادة (جيف).

وتأتي كلمة " حمار": لتصعد المعنى أكثر وأكثر، والحمار مشهور ببلادته ودأبه وتحمله مع عدم الاستفادة، ولذا ضرب الله مثل اليهود في عدم انتفاعهم بالتوراة بالحمار يحمل أسفارًا، وضرب الرسول – ﷺ– مثل الذي يتكلم والإمام يخطب بالحمار، فهذه الكلمات تصور هذا النموذج البشري الغريب بأنه: دءوب لا يكل في طلب الدنيا، فهو حمار النهار، سخاب في الأسواق، فظ غليظ متكبر، وفوق هذا جموع منوع، ولذا فهو عالم بالدنيا وتحصيلها، وبأنه غافل تجاه الآخرة، فهو ينام طول ليله كالجيفة التي لا تتحرك.

فما أجمل تعبير البيان النبوي عن بلادة ذلك الرجل، ودأبه، وتعبه، وغبائه، بذلك الأسلوب الكنائي القائم على التمثيل " حمار النهار " و " جيفة الليل " للكناية عن كثرة نومه، مع عدم تفكيره في آخرته.

وهاتان الكنايتان قائمتان على تمثيل محذوف الطرف الأول (المشبه) والتقدير: هو جيفة الليل، وهو حمار النهار، ولعل حذف المشبه يوهم دخول التشبيه في الاستعارة، وهذا أقوى في دعوى الاتحاد بين الطرفين.

٥- جمال الكلمة بدلالتها الإيحائية:

من الأمور الجلية أن " لغة الحديث تسترعي وجدان القارئ والسامع، بروعة نظمها الذي يؤلف صورًا بديعة، ولا يعتمد على الكلمات المفردة في جمال إيقاعه، فقد تكون الكلمة مقبولة في ذاتها، ولكنها عندما تجتمع مع كلمات أخرى يحصل تنافر بينها، ونبوٌّ لها عن الأذن، واستثقال لها، ولكن الكلمات الحديثية عندما تضم الواحدة منها إلى أخواتها يحلو جرسها، وتزيد عذوبتها، ويحسن إيقاعها، ولعل ذلك يعود إلى الموهبة الفذة التي منحها الله عبده ورسوله محمدًا – ﷺ– في نظم الكلمات، وإلى التآلف المدهش بين مخارج الحروف. (١)

(١) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي د/ محمد بن لطفي الصباغ ص٥٣٩

ومن أمثلة ذلك قوله – صلى الله عليه وسلم –: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى في ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: إمَامٌ عَدْلٌ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللَّهِ، ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ...(١).

فانظر إلى كلمة (معلق) وما تحمله من دلالة التعلق، والحب، والصلة الحميمة، وعدم الانقطاع، وقد يراد بتعلقه بالمساجد: أمكنة السجود، وأزمنتها، والسجود نفسه، بمعنى: أنه دائمًا يذكر سجوده لله عز وجل ويذكر أوقات السجود، وكلما مضى وقت للصلاة تجده ينتظر الوقت الآخر بلهف وتشوق، وأمكنة السجود وهي المساجد، حتى إذا خرج من المسجد فقلبه باق في المسجد يألفه، ويرجع إليه فيحن إليه، فإذن نقول: هذا الرجل معلق بالمساجد وبالسجود، وأوقات السجود، وأمكنة السجود، وإذا كان قلبه معلقا بالمساجد فإنه من باب أولى أن يكون معلقًا بالمسجود له وهو الله عز وجل.

فأنت ترى أن الكلمة موحية بالتشبث بالمساجد، حتى وإن خرج لبعض الوقت لقضاء حاجة أو مهمة يظل قلبه في المسجد، وهذا ما توحي به لفظة (في)، بما تحمله من معنى الظرفية، ومن ثم فقلبه مستقر في المساجد، فمعنى تعلق بالمساجد: أي تمكنَ حُبُّها من قلبه، أي عَلقَ بِحُبِّهَا، وارْتَبطَ بِها، وتَعَلَّقَ بِهَا، وعلِق حبُّها بقلبه، أي هويها، وهام بها.

فضلًا عما توحي به كلمة (معلق) من معنى الحسِّية، وكأن قلبه بالفعل مربوط بالمساجد، وهذا ما لا نجده في كلمات أخرى قد تكون قريبة في معناها من التعلق كالاستهواء، وغيرها.

– ومن الأحاديث التي توحي ألفاظها متعاضدة مع الشرط والتشبيه بدلالة المعاني ماورد عنه – ﷺ– أنه قال:« مَنْ بَنَى لِلَّهِ مَسْجِدًا – وَلَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ –

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٣) واللفظ له، ومسلم (١٠٣١).

بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»[١].

فالحديث ترغيب في بناء المساجد التي يذكر الله فيها، مهما كان حجمها من الضآلة أو الصغر، وقد بني من جزءين: شرط وجزاء، ومعنى هذا أن الجزاء متوقف على الشرط، وملازم له، فمتى وقع الشرط كان الجزاء، أي متى تم البناء أو الشروع فيه بنية صادقة، تم جزاء الله له ببناء بيت في الجنة، فجزاء الله ملازم لمن قدم الشرط.

ويتبين من ذلك: أن الجزاء من جنس العمل مع ملاحظة الفارق الهائل بين ما عند الله تعالى، وما يقدمه الناس في الدنيا، فبناء المسجد (وهو بيت الله في الأرض) يقابله بناء بيت في الجنة، ولا وجه للمقارنة بين هذا وذاك.

والحديث يتضمن تشبيهًا، يشير إلى أنه مهما كانت ضآلة المسجد الذي بناه الإنسان لتؤدى فيه الصلاة، حتى ولو كان كمقدار مفحص قطاة، فإنه ينال هذا الثواب.

ومعلوم أنه ليس من المعقول أن الصلاة تؤدى في مثل هذا المكان الضيق لهذا الطائر، ولكن هذا كناية عن حصول الثواب العظيم على العمل حتى لو كان ضئيلاً.

ولعل في اختياره (مفحص القطا) للتمثيل به أسرار عظيمة قال الزركشي: خص القطاة بالذكر دون غيرها؛ لأن العرب تضرب به المثل في الصدق، يقال في المثل " أصدق من قطاة " كما أن فيه رمزًا إلى المحافظة على الإخلاص في بنائه، والصدق في إنشائه. [٢]

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني ٢/٢٣٨، ٣٠٨، الشهاب للقضاعي ١٦، ابن ماجه ١/٢٤٤، أحمد ١/٢٤١، المصنف لابن أبي شيبة ١/١٨١، ١٨٢، والقطا: طائر معروف، سمي بذلك لثقل مشيه، واحدته قطاة، والجمع قطوات وقطيات. وفي المثل: إنه لأصدق من قطاة، وذلك لأنها تقول: قطا قطا. وفي المثل: لو ترك القطا لنام، يضرب مثلاً لمن يهج إذا تهيج، ويقال في المثل: إنه لأدل من قطاة: لأنها ترد الماء ليلاً من الفلاة البعيدة " ينظر: لسان العرب مادة " قطا ".

(٢) ينظر: فيض القدير للعلامة المناوي ٦/٩٦

وفيه إشارة إلى تعهد هذا المسجد بالنظافة، والحماية من الهوام والحشرات، ورشه بالماء، وغير ذلك من وسائل الوقاية والحفظ؛ لأنها ستكون موطنًا للصلاة والذكر، وتستشف هذه المعاني من فعل القطا بمفحصها أو أفحوصها، وهما بمعنى واحد، سمي بذلك؛ لأن القطا تفحص الموضع ثم تبيض فيه، أي تتفقد مكانها وتحميه من الهوام والحشرات؛ لأنها تستوطن هذا المكان لتبيض فيه وتفرخ، فإذا كانت القطا تتخذ مفحصها للسكن والهدوء والطمأنينة والاستقرار، فكذلك المسجد بيت السكينة والطمأنينة والهدوء والاستقرار، وإذا كان (مفحص القطا) مكان للتفريخ والتربية، فإن المسجد بيت لتفريخ أجيال صالحة تعتمد على نفسها، وهو منشأ التربية الصالحة للنشء الصالح الذي يفيد مجتمعه.

وإذا كان مفحص القطا مكانًا لنشر حنان الأم على صغارها، وغرس لمعاني الحب والتضحية والتكافل في طباع أبنائها، فإن المسجد خير مكان لغرس كل المعاني السامية من الحب والحنان والتضحية والتراحم والتكافل، وغير ذلك من قيم الإسلام السامية.

وإذا كانت القطاة يضرب بها المثل في حسن الاهتداء والاستدلال، فيقال: أدل من قطاة، فإن رواد المساجد وعمارها يضربون بأعمالهم الطيبة مثلاً في الاهتداء ومعرفة الطريق الأمثل نحو الله.

ومن هنا نرى أن اختيار (مفحص القطاة) اختيار دقيق يوحي بكل هذه المعاني الراقية وغيرها، وهكذا اختيار العناصر الممثل بها في البيان النبوي دائمًا.

– ومن الكلمات الموحية بظلالها في الحديث لتوضيح المعنى المراد، كلمة (بلاقع) في قوله – ﷺ– : «اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع»، ويدل التعبير بكلمة

«بلاقع» على أن هذه الآثار صارت خرابًا، تسكنها الغربان، ويسيطر عليها الأسى والحزن والحسرة، كما أشار ابن منظور لذلك.

والمعنى: أن يفتقر الحالف ويذهب ما في بيته من الخير والمال، سوى ما ذخر له في الآخرة من الإثم، وقيل: هو أن يفرِّق الله شمله، ويغير عليه ما أولاه من نعمه، والبلاقع: التي لا شيء فيها، قال رؤبة: فأصبحت دارهم بلاقعًا [(١)].

- ومن الكلمات الموحية كلمة: (مغبون) في قوله - ﷺ- عن ابن عباس رضي الله عنهما: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحَّة والفراغ» [(٢)].

فكلمة «مغبون» من الكلمات ذات الدلالة الإيحائية في هذا الحديث، فهي تتضمن عدة معان من خلال أقوال العلماء.

قال ابن بطال:

«معنى الحديث أن المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مكفيًّا صحيح البدن، فمن حصل له ذلك فليحرص على أن لا يغبن، بأن يترك شكر الله على ما أنعم به عليه، ومن شكره امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فمن فرط في ذلك فهو المغبون.
وأشار بقوله: «كثير من الناس» إلى أن الذي يوفق لذلك قليل، وقال ابن الجوزي: قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرغًا لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدنيا مزرعة الآخرة، وفيها التجارة التي يظهر ربحها في الآخرة، فمن

---

(١) لسان العرب مادة «بلقع».
(٢) الأمثال في الحديث النبوي لأبي الشيخ رقم (١٦٩) (ص٢٠٤)، فتح الباري (٢٢٩/١١، ٢٣٠)، كتاب الرقائق، والترمذي في الزهد (٥٨٩/٦)، البغوي في شرح السنة (٢٢٣/١٤) رقم (٤٠٢٠)، ووهم الحاكم فاستدركه على الصحيحين (٣٠٦/٤)، والغبن بالسكون وبالتحريم، قال الجوهري: هو في البيع بالسكون، وفي الرأي بالتحريك، وعلى هذا فيصح كل منهما في هذا الخبر، فإن من لا يستعملها فيما ينبغي فقد غبن لكونه باعهما ببخس، ولم يحمد رأيه في ذلك فتح الباري (٢٣٠/١١).

استعمل فراغه وصحته في طاعة الله فهو المغبوط، ومن استعملهما في معصية الله فهو المغبون، لأن الفراغ يعقبه الشغل والصحة يعقبها السقم..»[١].

٦- **جمال الكلمة بحسن ملاءمتها للسياق والمعنى المراد**:

إن من يتعرض لدراسة معاني الكلمات يتطلب تحليلا للسياقات والمواقف التي ترد فيها، وعلى هذا فمعنى الكلمة يتعدد ويتغير تبعاً لتعدد السياقات التي تقع فيها.

وتتعدد أنواع السياقات تبعًا للزاوية المنظور منها، فهناك السياق اللغوي إن كانت اللغة هي سيدة الموقف، والمقصود به استعمال الكلمة داخل نظام الجملة، عندما تتعاضد مع كلمات أخرى، مما يكسبها بعدًا أو معنى خاصاً محدداً، لا يستوي مع معناها المعجمي المتشعب.

كما أن هناك السياق العاطفي: الذي يعتمد الدلالة العاطفية للكلمة، ودرجة قوة الانفعال أو ضعفه، ويتكفل الأداء الصوتي للكلمات بشحن المفردات بمعاني الانفعال أو العاطفة، ويعتمد ذلك على جرس الكلمات الذي يجعلنا نحس بمعناها ممثلًا.

كما أن هناك سياق الموقف: الذي يتركز على الزمان والمكان الذي يجري فيه الكلام، وهذا ما عبَّر عنه البلاغيون بمصطلح (المقام) وذاع على إثر ذلك المثل: (لكل مقام مقال)، وبات من المستقر لدى البلاغيين أن مراعاة المقام تجعل المتكلم يعدل عن استعمال الكلمات الصريحة إلى الرمز والكناية والتلميح، كما في مقامات الخوف من البطش أو التنكيل مثلًا، وكما في مقام الاستحياء من ذكر ما يستقبح أو يستهجن، أو في مقام التأدب الذي يلجيء المتكلم إلى التعريض منعًا للحرج مع الآخرين، وهكذا.

---

(١) المرجع السابق (١١/٢٣٠).

ولعلَّ من أعظم من تحدث عن السياق ودوره في أن تكتسب الكلمات رونقاً وبهاءً وكيف أن السياق يكسو الكلمة هذا الرونق وذلك البهاء، كما أنه قد يفقدها ذلك إذا لم تكن ملائمة لسياقها ومقامها ما ترنّم به شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجاني حيث قال: " اتَّضحَ إذن اتّضاحاً لا يَدَعُ لِلشكِ مجالاً، أنَّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ، ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر... ومثَّل لذلك بلفظ (الأخدع) ولفظة (شيء).

يقول: "ومن أعجب ذلك لفظة "الشيء" فإنك تراها مقبولة حسنة في موضع، وضعيفة مستكرهة في موضع، وإن أردت أن تعرف ذلك فانظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

ومن مالئ عينيه من شيء غيره إذا راح نحو الجمرة البيض كالدمى

وإلى قول أبي حية:

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة تقاضاه شيء لا يمل التقاضيا.

فإنك تعرف حسنها ومكانها من القبول. ثم انظر إليها في بيت المتنبي:

لو الفلك الدوار أبغضت سعيه لعوَّقه شيء عن الدوران

فإنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها فيما تقدم"(١).

ثم يقول: لو كانتِ الكلمةُ إذا حَسُنتْ حَسُنتْ من حيث هي لفظٌ، وإذا اسْتَحقَّت المزيةَ والشرفَ استحقَّتْ ذلك في ذاتِها وعلى انفرادِها، دونَ أن يكونَ السببَ في

(١) دلائل الإعجاز - أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) بتحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر- مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة - الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م- ١/٤٧ ٤٨.

ذلك حالٌ لها مع أَخَواتها المجاورةِ لها في النَّظْم، لما اختلفَ بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبدًا، ولا تحسن أبدًا"(١).

فعندما نقول إن الكلمة لها دلالة تصويرية أو إيحائية أوغير ذلك فلا يمكن تصور هذه الدلالات وتلك الإيحاءات مجردة عن سياقاتها، أو مبتورة عن مساقاتها.

والحديث عن السياقات والمساقات يحتاج إلى بحث منفرد، وهذا ما سنفرد له بحثًا آخر – إن شاء الله تعالى-.

تم بحمد الله تعالى،،،

(١) نفسه ٤٨/١.

فهرس لأهم المصادر والمراجع:

١. إعلام الموقعين عن رب العالمين – لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) – بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد – ط مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، القاهرة – الطبعة : ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .
٢. تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، عبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ) تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي.
٣. تحفة الأحوذي، ضبط ومراجعة / عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدنية المنورة،.
٤. تحفة المودود بأحكام المولود المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) المحقق: عبد القادر الأرناؤوط الناشر: مكتبة دار البيان – دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٩١ – ١٩٧١م.
٥. التصوير الفني في الحديث النبوي. محمد الصباغ. الدار العربية للعلوم- ناشرون – المكتب الإسلامي للطباعة والنشر،١٩٨٨م.
٦. الجاحظ، البيان والتبيين: تحقيق فوزي عطوي. بيروت: دار صعب.
٧. دلائل الإعجاز – أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) بتحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر- مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة – الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م-.
٨. سنن ابن ماجه المؤلف: ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني.
٩. سنن الترمذي المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي.
١٠. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن) المؤلف: شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ) المحقق: د. عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض) ط أولى.

١١. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
١٢. صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي – الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
١٣. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (هـ٦٩١ – ٧٥١هـ) بتحقيق نايف بن أحمد الحمد ط دار عالم الفوائد – مكة المكرمة – الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ.
١٤. غريب الحديث المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ) المحقق: د. عبد الله الجبوري الناشر: مطبعة العاني – بغداد الطبعة: الأولى .
١٥. الفائق في غريب الحديث تأليف العلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٨٣ هـ وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين الجزء الثالث دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.
١٦. فتح الباري شرح صحيح البخاري المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩ رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.
١٧. فيض القدير شرح الجامع الصغير – لزين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي (المتوفى : ١٠٣١هـ) ط دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة الاولى ١٤١٥ ه – ١٩٩٤ م ٣٠٦/١.
١٨. القاموس المحيط المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧ هـ) تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم.
١٩. كتاب الأمثال في الحديث النبوي المؤلف: أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (المتوفى: ٣٦٩هـ) المحقق:

الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد الناشر: الدار السلفية - بومباي - الهند الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ - ١٩٨٧م.

٢٠. كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس المؤلف: إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (المتوفى: ١١٦٢هـ) الناشر: مكتبة القدسي.

٢١. كشف اللثام شرح عمدة الأحكام- شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨ هـ) تحقيق: نور الدين طالب -الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت، دار النوادر - سوريا - الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧.

٢٢. لسان العرب المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر - بيروت، بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

٢٣. مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف : أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، الناشر : مؤسسة قرطبة - القاهرة.

٢٤. المعاني في ضوء أساليب القرآن . تأليف: د. عبد الفتاح لاشين . دار النشر: دار الفكر العربي . سنة الطبع: الطبعة الأولى (١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).

٢٥. النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: المكتبة العلمية - بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــــوع	الصفحة
١.	ملخص البحث باللغة العربية	٨٨٠٥
٢.	Summary of the research in Arabic	٨٨٠٦
٣.	مقدمة	٨٨٠٧
٤.	الأمر بتحسين اللفظ وانتقاء الكلام	٨٨٠٩
٥.	جمال الكلمة في البيان النبوي	٨٨١٤
٦.	فهرس لأهم المصادر والمراجع	٨٨٣٨
٧.	فهرس الموضوعات	٨٨٤١

تم بحمد الله